إضاءات نقدية (فصلية علمية)
السنة العاشرة – العدد الثامن والثلاثون – صيف ١٣٩٩ش/ حزيران ٢٠٢٠م
صص ١٢٠ ـ ٩٥

فلسـفة الوجود من منظور شعر سهراب سبهرى؛ أسطورة النور والظلام (مقاربة فلسفية لماهية الشعر)

زهرا خاتمى كاشانى*
محمدرضا قارى (الكاتب المسؤول)**

الملخص

إن سرّ الخلق ونشأة الكون قاد الإنسان إلى عالم الأساطير للعثور على الإجابة المطلوبة. يقسم الباحثون، أساطير الخلق إلى فئتين عامتين. أساطير "علم الكونيات" أو "الكونية" التى تصف بشـكل رمزى خلق العالم وأسـاطير "الأصل" التى تركز على أصل ونشأة وظهور النباتات والحيوانات والبشر وما إلى ذلک ... ومن أكثر الأساطير الكونية شهرةً عالمياً هى أسطورة "النور" و"الظلام" والتى لها صلة خاصة بالأدب الصوفى والعرفانى. يعتبر سـهراب سـبهرى شـاعرا عرفانيا يحضر وقائع وأحداث الخلق فى شعره. ففى الشهود العرفانى للفئة الأولى، يلتفت الشاعر إلى كل من "الأسطورة الكونية" و"أسطورة الأصل" معاً، ولكن فى الفئة الأخرى نواجه "أسـطورة الأصل" فقط. يقوم هذا البحث بدراسة "هشت كتاب" (ثمانية كتب) لسهراب سپهرى، معتمداً المنهج الوصفى التحليلى. كما تناول البحث الشـهود العرفانى لسـبهرى من منظور النقد الأسطورى القائم على أسطورة النور والظلام، ليتمكّن من الإجابة على بعض الأسئلة التى يطرحها الباحثون فى مجال الوجود والكون والخلق.

الكلمات الدليلية: الكلمات الخلق، الأسطورة الكونية، أسطورة الأصل، النور، الظلام.

---

*. خريجة مرحلة الدكتوراه فى اللغة الفارسية وآدابها، فرع أراک، **جامعة آزاد الإسلامية**، أراک، إيران
Z.khatami1@gmail.com
**. أستاذ مشارک فى قسم اللغة الفارسية وآدابها، فرع أراک، جامعة آزاد الإسلامية، أراک، إيران
Mr-ghari@iau-arak.ac.ir

تاريخ الاستلام: ١٣٩٩/٢/١٢ش **تاريخ القبول: ١٣٩٩/٦/١ش**

المقدمة

قد عبّر معظم الديانات فى العالم، البدائية منها والتقليدية والشـهيرة، عن المعتقدات المتعلقة بالخلق فى إطار الأسـاطير الرمزية. «يسـّمى العلماء والباحثون الحديثون ... هذه الأساطير البدائية التى يعتبرها المعتقدون قصة حقيقية تماماً منذ الأزل، "الأساطير الكونية". والأساطير الكونية هى أساطير محورية تصف بداية الكون بمصطلحات رمزية ... تشكل هذه الأساطير بعد ذلک نقطة البداية لتسلسل أساطير أخرى تسمى اصطلاحاً "أسـاطير الأصل" وهى تروى الأحداث المذهلة التى حدثت بعد إنشاء الكون. وتقوم بوصف كيفية ظهور النباتات والحيوانات والبشر وما إلى ذلک.»(لاجوردى، ١٣٩٥ش: ٢)

يشـكل هذان النوعان من الأسـاطير معاً "التاريخ المقدّس" أو "التاريخ البدائى أو المبكّر" لشـعب أو دين – تاريخ له أهمية خاصة فى شـرح كيفية نشـأة الكون ويعتبر تاريخـاً حقيقياً. (اليادة، ١٣٩٣ش: ٥٧–٥٥) فى الحديث عن الخلق، يأتى التأكيد على الأسـاطير الكونية ذلک لأن هذه الأسـاطير، تعدّ مصدراً للأسـاطير الأخرى وحذواً تحتذى به الأساطير.

إحدى أكثر الأسـاطير العالمية شـهرة فى علم الأسطورة الكونية هى أسطورة النور والظـلام والتـى تمّ التعبير عنها منذ فترة طويلة بلغات مختلفة فى جميع أنحاء العالم. من وجهة نظـر هرميس[1]، إن ألهة أتـوم[2] أو إلهتوم بطبيعتها المضيئة، هـى الخالق والمصدر الوحيد الدائم للطاقة. وقد اعتقد الهرمسـيون بالصلة بين الضوء والحياة واعتبروا النور من أصل إلهى. (واردى ودانائيان، ١٣٩٠ش: ١٦٤) فى الأساطير الهرميسية، يجلس إله الشـمس رع، على متن قارب كل صباح بعد الاسـتحمام فى النيل الأزرق، يستكشف عوالمه الاثنى عشر التى ترمز إلى الأجزاء الاثنى عشر من اليوم. (شاهسنى، على محمد ١٣٨٨ش: ٤١) توجد هذه الفكرة أيضاً مع اختلافات طفيفة فى أسـاطير الأمم القديمة الأخرى. فعلى سـبيل المثال، يعدّ النور والظلام فى الديانة الزروانية التى يفوق جانبها الأسـطورى، عناصـر رمزية وظّفت لأهورامزدا والشـيطان الأهريمـان. «فى المذهب

1. Hermes
2. Atum

الزروانـــی يمثّل أورمزد الخير والأهريمان الشـــر. يرى الزروانيـــون أن خلف الأحداث المختلفة والشـــخصيات المتعددة فی الحياة، قوة أعلی تعدّ مصدراً لجميع الأشـــياء، منها الثنويـــة الكونيـــة، النور والظلام، الخير والشـــر.» (هينلـــز، ١٣٨٨ش: ١١٤) مع ظهور الديانة الزرادشـــتية، عرف أهورامـــزدا كإله واحد جدير بالثناء ورمـــزه النور. «النور والنار والشـــمس هی مظاهر لأهورامزدا. ويتجلی أهورا بالنور. النور هو مصدر الحياة والشمس هی أداة الحياة.» (رضی، ١٣٨٥ش: ٨٩)

وفی الإســـلام أيضاً، يقدم الله نفسه صراحةً علی أنه نور السماوات والأرض: ﴿الله نور الســـماوات والأرض﴾ (النور/٣٥) وبغضّ النظر عن الديانات القديمة والســـماوية الأخری، نری فی فلســـفة الإشـــراق أيضاً أن النور هو مبدأ علم الوجود. النور الإلهی الذی يسميه السهروردی "نور الأنوار"، وهو الحقيقة الإلهية التی تستمدّ نورها من شدة النور اللامتناهی. (سهروردی، ١٣٧٧ش: ١٩٧) وفی بعض الأحيان، «يشير المتصوفون برمـــز النور، إلی معنی التقرّب الحقيقـــی للمحبوب الأزلی؛ إنهم يعبّرون حتی عن تجربة الحب التی هی أعلی تجربة صوفية، من خلال النور.» (نزهت، ١٣٨٨ش: ١٥٩) بالإضافة إلی تأثير التصوف والفلســـفة والأساطير فی الشعر المعاصر، لا يمكن إنكار دور العلوم الجديدة فی تشكيل تفكير الموهوبين الإيرانيين، بما فی ذلک نظرية الكمية١، التی تعتبر نقطـــة البداية للوجود كنقطـــة مضيئة وذات حرارة. نقطة الضـــوء التی تنفجر فی بداية الكون والتی يتم من خلالها الحصول علی المادة، المادة المضادة، المادة المظلمة، والطاقة المظلمة. ووفقاً للكمية، تشـــكل المادة المظلمـــة والطاقة المظلمة حوالی ٩٥ ٪ من حجم الكون، وبالتالی، فإن الظلام هو الأصل إلی جانب الضوء أو النور. وبهذه الطريقة، يفقد "النور" و"الظلام"، كســـائر المفاهيم الأخـــری فی الفترة المعاصرة، معناهما المحدّد وتتغير صلتهما من التباين إلی الالتقاء والوصل والوفاق.

خلفية البحث

قد اهتم معظم الباحثين الذين درســـوا أساطير الخلق بالدور المهمّ الذی أدّاه عنصر النور والظلام فی مجال الخلق. بما فی ذلک ميرتشا الياده (الأسطورة والواقع، ١٣٩٣ش)

– جون هينيلز (التعرف على الأساطير الإيرانية، ١٣٨٣ش) – فرانز كومنت (الأسرار الميثرائية، ١٣٨٣ش) – هاشم رضى (آيين مهر، ١٣٧١ش) – داريوش شايگان (الأديان والمدارس الفلسفية الهندية، ١٣٨٦ش) و ...

ومن ناحية أخرى، ناقش الباحثان مكانة الأسطورة والتصوف فى شعر سبهرى فى دراسات مثل سيروس شميسا (نظرة على سبهرى، ١٣٨٢ش) وساغر سليمان نژاد مهرآبادى (تحليل أنواع مختلفة من الأسطورة فى شعر سهراب، ١٣٩٤ش) – محمد على گذشتى وبهروز روميانى (مدينة النور والظلام فى شعر سبهرى، ١٣٩٢ش) – راضية نسبى (تعابير رمزية فى أشعار سهراب سبهرى) و... وتهدف هذه المقالة إلى دراسة دور عنصرى النور والظلام فى عملية الخلق من وجهة نظر سبهرى وتطبيقهما مع الأسطورة الكونية وأسطورة الأصل.

أهداف البحث

– اكتشاف أسرار الخلق من خلال أشعار سهراب سبهرى.
– معالجة موضوع الخلق فى شعر سبهرى من منظور النقد الأسطورى.
– دراسة دور "النور" و"الظلام" فى عملية الخلق من وجهة نظر سبهرى.

أسئلة البحث

– فى أى مرحلة من الشعر يستخدم سبهرى الأساطير القديمة لكشف أسرار الوجود؟
– فى أى مرحلة يقوم الشاعر لاكتشاف نقطة البداية فى الوجود شهوداً؟
– أى مجموعة من أشعار سبهرى تتضمن وجهات نظر فلسفية؟
– فى أى مجموعة من أشعاره يشير سبهرى إلى أن بداية الخلق من النور؟
– كم يؤمن سبهرى بخلق الظلام؟

فرضيات البحث

– يستخدم سبهرى أساطير قديمة لحل أسرار الوجود.
– إن مقاربة سبهرى لقضية خلق الكون هى مقاربة فلسفية.

- يحاول سبهری كشف سر الوجود بشهود صوفی عرفانی.
- يعتبر سبهری أن بداية الخلق والكون من النور.
- يؤمن سبهری بخلق الظلام.

مصطلحات البحث

۱. التصوف الكمی أو الباطنية الكمومية هی عبارة عن مجموعة من المعتقدات الميتافيزيقية والممارسات المرتبطة بها التی ترتبط علی أساسها بعض قوانين ميكانيكا الكم مع بعض المفاهيم والدلالات العرفانية. يعتبر معظم الفيزيائيين التصوّفَ الكمی علماً زائفاً أو نوعاً من الدجل والخداع. لكن هذا الرأی (التصوف الكمی) يتفق مع وجهات النظر المقدمة فی بعض المدارس الصوفية الشرقية مثل الهندوسية والطاوية والبوذية، لذلک فی قراءة وتحليل قصائد سبهری، يمكن الالتفات إلی المعتقدات الكمومية.

۲. من زاوية أخری، "ثمانية كتب" هی رحلة من اللاوعی إلی اللاوعی ومن اللاوعی إلی عالم الوعی. فی هذا الكتاب، يجمع نمط الرحلة بين الأنماط الأخری. وسبهری نفسه هو بطل الرحلة. يبدأ رحلته الأسطورية الصوفية من عالم الصمت "موت اللون" حتی يصل فی "نحن لا شیء، نحن نظرة" إلی رؤية واضحة للوجود. وقد تطرق الباحثان إلی صعود وهبوط هذه الرحلة الجميلة فی مقال بعنوان "المعراج العرفانی فی كتب سبهری الثمانية المستندة إلی نموذج كامبل" المنشور فی فصلية العرفان الإسلامی/ ۱۳۹۷ش.

۳. نظام الصيرورة (devenir) هو أحد الأنظمة الأربعة الهامة والفعالة فی تحليل الخطاب الأدبی والرواية. لم تعرَّف علاقة الصيروريين بالعالم والأشياء علی أساس امتلاک وحيازة الموضوعات القيمة، ولكن كعلاقة قائمة علی الشعور والإدراک المتبادلين، يعرّف بوحدة الوجود والاتحاد.

آثار النور والظلام فی "ثمانية كتب"

- خلق النور والظلام فی "موت اللون"

فی هذه المجموعة الشعرية، بدأ سبهری أسلوبه بالنظام النيموی والتيارات السياسية

فى تلك الحقبة وفى هذه المجموعة لم يحقق بعْدُ أسلوبه ولغته الخاصة. فى هذه المجموعة، لا يقول الشاعر الذى يحمل "اللون الأسود" على "خطوط شفاه" سوى التعتيم. فالليل والظلام بالنسبة إليه يذكّرانه بالصمت والسكون والاحتضار واليأس والموت. ولكن فى القصيدة الأخيرة من هذه المجموعة، تكسر أغنية "سرود زهر" (نشيد السم) فجأةً مقاومة "شب زهرآگين" (الليلة السامة):

..كم خططه عقيمة!/ نبضتى تضحك فى كل لحظة يفكّر فيها / لا يعرف أنه نمى / وجودى المثمر فى الوحل السام/ ولا يعرف أننى أصبحت أغسل فى السم/ جسد كل صرخة، كل ضحكة/ فى رطب السم دودة فى ذهنى على قيد الحياة/ فى أرض السم، ينمو النبات المر من شعرى. (موت اللون/ نشيد السم: ٧٣)

وبالتالى يؤسس مفارقة جميلة. ومع ذلك، فإن الانتباه إلى الحقائق المريرة والمظلمة للمجتمع فى هذه المجموعة يمنع سهراب من معالجة المفاهيم المجردة مثل قضية الخلق.

- خلق النور والظلام فى "حياة الأحلام"

فى "حياة الأحلام"، يحاول سهراب تصوير "ذاته" الشعرية. يمكن القول إن بطل القصائد فى هذه المجموعة هو عقله الباطن. يحاول الشاعر كشف سر الوجود بمساعدة عقله الباطن. ذات سهراب الشعرية تدخل فى إطار الزمن الأسطورى عندما تربط بين الأزل والأبد. هذا الزمن السماوى يحدث خارج التاريخ وهو قوى وحيوى للغاية. فى العالم القديم، حاول البشر الأسطورى تحقيق هذا الزمن من خلال تقديم التضحيات وإقامة بعض الطقوس والاحتفالات الخاصة. (إيليادة، ١٣٩٣ش: ٣٩٩) ومن ناحية أخرى، يذكّرنا مفهوم الزمن فى الأسطورة وأداء طقوس خاصة فى وقت مقدس، مع أداء نقى صرف، بمفهوم زمن "الست" فى العرفان، ومن ناحية أخرى ... إن فناء الصوفى فى الفترة الصوفية الشهيرة من هذا الزمن السماوى المفاجئ، يعدّ مشهداً أسطورياً. (گودرزى وآخرون، ١٣٩٥ش: ٢٢٦-٢٢٤)

بغية الوصول إلى مثل هذا الزمن، يركّز سهراب على السلوك ويلجأ إلى النوم والأحلام. ويستخدم لفظة "الحلم" ٣٣ مرة لفظة "الرؤيا" ١٦ مرة فى هذه المجموعة،

وتمنح قصائد هذه المجموعة روح الانطباعية السريالية: مساحة مظلمة مع خطوط عابرة من الضوء، رحلة بين مراتب مختلفة من الحقائق والأسئلة الفلسفية. فی معظم قصائد هذه المجموعة – باستثناء واحدة أو اثنتين – نری أن الحياة نورٌ بين ظلامين. تتحدّث المقطوعة "دون إجابة" عن "ظلمة دون بداية ونهاية"، والتی يمكن أن تعدّ إشارة إلى الظلام الأبدی والزمن الأسطوری. فی الظلام بلا بداية ونهاية/ نما باب فی ضوء ترقّبی... / ... وأنا كنت انعكاساً ... (حياة الأحلام/ دون إجابة: ١٢٨ و١٢٧)

إن بداية العالم "بالظلام" موضوع تطرق إليه بعض الجماعات والأديان العرقية. على سبيل المثال، إن معظم الأساطير الأفريقية واليونانية، تؤمن بالظلمة قبل النور فی نشأة الكون. (Wikipedia.org/wiki/ أسطورة الخلق)

وتروی بعض الديانات مثل الإسلام والمسيح قصة الخلق هذه أحياناً. على سبيل المثال نقرأ فی القرآن الكريم: ﴿الحمدُ لله الذی خلقَ السمواتِ والأرضَ، وجعلَ الظلماتِ والنورَ، ثم الذين كفروا بربّهم يعدِلون﴾ (النور/١) بالإضافة إلى القرآن الكريم، قد ذكّر الإله ذلک فی الكتب السماوية الأخری: «فی البدء خلق الله السموات والأرض. وكانت الأرض خربة وخالية، وعلى وجه الغمر ظلمة وروح الله يرف على وجه المياه. وقال الله ليكن نور فكان نور. ورأى الله أنه حسن وفصل الله بين النور والظلمة.» (الكتاب المقدس، سفر التكوين، الإصحاح الأول: ١)

يعتقد العلماء أيضاً أنه «بعد الانفجار العظيم، غطى الظلام المطلق العالم، وبعد ٣٨٠ ألف سنة من الانفجار العظيم، كان العالم قاتماً، وبعد ٣٨٠ ألف سنة، تشكل أوّل ضوء فی الكون.» (فخاری، رامين، ١٣٩٢ش: ٢) (صفحة رامين– فخاری .bigbang page (Com/tag

قد تطرقت الهندوسية إلى موضوع نشأة الخلق بصورة رمزية، وقدّمت ثلاث وجهات نظر عامة فی هذا الصدد:

١– الخلق من العدم،

٢– منشأ عالم التكوين،

٣– البراهمانية وخلق الماء (أحمدی، ١٣٩٠ش: ٩٤)

فی غضون ذلک، یقبل سـهراب "الخلق من العدم" الأقرب إلی التعالیم الإسـلامیة، ویتغنی به فی قصائده. علی سـبیل المثال، فی أنشـودة ۱۲۹ من کتاب الرمل والریف حول الخلق من العدم جاء:

«فی ذلک الوقت، لا وجود ولا عدم. لا فضاء ولا سماء فوقه. ماذا کان یغطیه وماذا یملـک؟ أین وتحت حمایة من؟ هـل کانت المیاه موجودة فقط؟ میاه عمیقة وغیر مخترَقة. لم یکـن هناک موت ولا خلود. لم یکن هناک أی أثـر من اللیل و النهار ... فی الأزل، کان الظلام یحجب الظلام، وکل هذا کان ماء ولا یمکن تمییزه. المخلوق الناشئ کان ملیئاً بالفراغ. وذلک (الکائن) الواحد تحرّک بقوة الحرارة. ثم نشأت الرغبة إلی (الخلق) فی تلـک الظلمة، وکانت هـذه نواة العقل الأولی. وقد بحث الحکماء بمسـاعدة العقل عن الحقیقة وعرفـوا أن صلة الوجود إنما تتحقق بعدم الوجود.» (شـایگان، ۲۰۰۷ ، ج۱: ۸۰ و۸۱)

فی الدیانة البراکریتیة[1]، prakrti، بمعنی المواد الخام للعالم ، لدیه ثلاثة أنواع (Guna): ۱. ستْوه (Sattva)، جوهر النور، ۲- الرجَس (Rajas)، جوهر الحرکة ، ۳- التمس (Tamas)، جوهر الظلام (شایگان، ۱۳۸٦ش،ج۲: ۵۷۱)

وفقا لهذا الانقسـام إذن، إن الظلمة تتحقق إلی جانب النور، وهو خلق النور الذی یلمـع فی قلب الظلام ویزیل حجاب الظلمات. یعتبر سـهراب فی مجموعته الشـعریة الأولی (إلی شـرق الحزن)، أن علم الکون رحلة من الظلام إلی النور وأسطورة الأصل علـی أنهـا تتحرک من النور إلی الظـلام. وفی قصیدته "زهرة البـلاط"، یأخذ البلاط الأزرق للجدار ورقصة الثعبان الأسـود، القارئَ إلی مکان مقدس وأسـطوری لیشهد مرحلتی الخلق (الکونیة ونظریة الأصل) برفقة الشاعر:

أمطار الضوء/ التی کانت تتساقط من شبکة الدهلیز اللامتناهی/ کانت تغسل بلاط الزهرة علی الحائط/ الثعبان الأسود لساق هذه الزهرة/ کان حیاً یرقص رقصة ناعمة/ قلـتَ إن أثیر الرقص المحترق/ کان قد تسـّرب فی حلقوم هذا الثعبان الأسـود (حیاة الأحلام/ زهرة البلاط: ۹۱ و۹۲)

1. prakrti

«فی هذه القصيدة نواجه أجواء إيران القديمة، والشـاعر يبدأ خطابه بـ"مطر النور". النور فی كلام سبهری هو سر الثبات والوعی. لقد وصل الشاعر إلى نوع من الإدراک الداخلی حيث ظل يتلألأ فی وجوده فعَبَر حدودَ الظلام.» (نسبی، التعابير الرمزية فی شعر سهراب سبهری)

وبهذه الطريقة، يولد العالم (الكون) من الظلام. ثم يشـير الشاعر إلى خلقه وربما إلى هبوط الإنسان ككائن من كائنات الكون:

... زحفـت يـد ظلی/ خفق القلـب الأزرق للبلاط/ توقف مطر الضوء/ وتلاشـت أحلامی. (حياة الأحلام /زهرة البلاط: ٩٣)

«الأزرق هو أحد أعمق الألوان. الأزرق والأبيض هما ألوان مريم العذراء وتعبّران عن التخلّص من قيم هذا العالم وتسريح روح طليقة نحو الإله.» (نسبی، التعابير الرمزية فی شعر سبهری)

وفی "الحدود المفقودة" من هذه المجموعة، يصف خلق البشر على النحو التالی:

تعفنت وهبطت جذور صافية/ وراح صوت يهيم فی طريق الفضاء غير المعبّد/ عبر الحدود، كان يبحث عن حدود مفقودة ... / ... شـمّ همسـة الاغتراب/ ثم عاد/ مرّ عبر الفضـاء/ وهبط فی الأرض علـى حافة الليل غير المرئية... (حيـاة الأحلام/ الحدود المفقودة: ٩٤ و ٩٥)

"طريق الفضاء غير المعبّد" هو مكان أسـطوری فی وقت أسـطوری يجتازه الشاعر كـ"صوت طائش"، حتى يهبط على "حافة الليل غير المرئية". (صورة لهبوط الإنسان)

فی مقطوعة "روضة فی الهتاف"، يشـير سبهری إلى تصوير الروضة عالماً من النور حيث مكانه الأول. (گذشتی وروميانی، المرجع نفسه: ١٠٤)

... لقـد تُركت فی حديقة/ هبّ نحوی ضوء خفيف وعديم اللون/ هل بنفسـی أتيتُ إلى هذه الحديقة؟/ أو امتلأت الحديقة من حولی؟ (روضة فی الهتاف: ١٠٧ و ١٠٨)

فـی هـذه المقطوعات من مجموعة "حيـاة الأحلام"، يمكن دراسـة مراحل الكونية والأصل وهی على النحو التالی:

الفانـوس المبلل/٧٩- زهرة البلاط/٩١ - الحـدود المفقودة/ ٩٤- المكافأة/ ٩٧-

اللحظة الضائعة/ ١٠٤- دون إجابة/ ١٢٧- الطائر الأسطورى/ ١١٠- الرحلة/ ١٢٤.

- خلق النور والظلام فى "حطام الشمس"

سهراب يواصل رحلته الشعرية إلى "آوار آفتاب" (حطام الشمس). فى هذه المجموعة، يرى سهراب الذى استيقظ ليلاً، نفسه كنوع من البشر تحت حطام الشمس والضوء، ويرغب فى أن يشعر بالارتياح المظلم مرة أخرى. من هذه المجموعة، تبدأ قصيدة "شاسوسا" بقصة الخلق والهبوط: "أنا جالس وحيداً بالقرب من حفنة من تراب فى أعماق نفسى". "حفنة من تراب" هى نفس المدفن ذات أربعة أقواس لـ "شاسوسا". إن كلمة "شاسوسا" بالإضافة إلى أنها تلعب دور عشيقة الشاعر(أنيما) الأسطورية فى هذه القصيدة، إلا أنها تذكّرنا بمكان أسطورى مقدّس. "شاسوسا" هو فى الأصل مقبرة قديمة جداً تقع قرب كاشان فى وسط الصحراء. أربعة أقواس (مدافن) غريبة مغمورة، والصمت الغامض والبعد عن المدينة، كل هذا يجعل هذا المكان يبدو وكأنه معبد مقدس فى ذهن الشاعر. فى هذا المكان، تحضر طفولة الشاعر وطفولة البشر، ويتحدث عن عزلة الإنسان، وعن تلوث وذهول الشمس فى هذا العالم، وعن الرغبة فى العودة إلى الليل المظلم الأزلى، حتى يلتقى بشاسوسا، تلك العشيقة الأزلية والمرأة الأثيرية. فى هذه القصيدة، يعتبر سهراب هذه الشمس التى تحمل عبئاً دلالياً سلبياً، علامة على الوعى الذاتى والإدراك، وهى ضارة للتخفى فى الظلام والوصول إلى مرحلة "الفناء". لذلك، تراه يتحدّث عن تلوث الشمس بطريقة متناقضة.» (زهره وند ومسعودى، ١٣٩٢ش: ١٣٨) يطلب العون من شاسوسا الأسود والعارى كمظهر من مظاهر الأنيما:

«... فى ظلام العطش هذا أدعوك: شاسوسا!/ اجعل هذا السهل مشمساً / حتى أجد الطريق الضالّ وأقف على قدمى/ أصمت/ هل تسمع؟/ جئت وذهبت بين لحظات عبثية/ شاسوسا، ريح سوداء عارية! .../ وكان شاسوسا قد نما على الرخام الأسود:/ شاسوسا يبدو كظلمتى!/ أنا تلوّثت بالشمس/ اجعلنى مظلماً داكناً داكناً. وفى الليل أسكب جسدك بداخلى .../ ... بدأ الطريق فى الليل، وصل إلى الشمس، والآن يعْبرُ حدودَ الظلام.» (حطام الشمس/ شاسوسا: ١٣٨-١٤٤)

فی هذه القصيدة، يربط "شاسوسا" العقل الباطن للشخص باللاوعی للكشف عن سر الوجود. و"ظلام" شاسوسا هو ظلام لطيف يمكن رؤيته فی معظم قصائد هذه المجموعة. ينقل هذا الظلام اللطيف الشعر أحياناً المدرسة الرمزية ويقرّبه إلى الرومانسية نوعاً ما:

نبض التراب/ تقلّب الهواء/ سمع العشب تساقط الحلم فی عينی:/ ... تسرّبتَ فی داخلی/ سمعت أنشودة جسدک المظلمة:/ "لا الصوت/ ولا النور/ أنا رنين وحدتک/ رنين ظلامک.» (حطام الشمس/ رنين: ١٣٦)

تبدأ المقطوعة الرائعة "زهرة المرآة " بمطر "ندی القمر" (الكونية):

يمطر الندی ضوءً من القمر/ سهل ملیء ببخار أزرق من زهور اللوتس/ يلمع علی تراب المرايا غير المطلية (حطام الشمس/ زهرة المرآة: ١٤٥ و ١٤٦)

«قد ارتبط القمر بالخصوبة والقوة السحرية فی معظم الأديان.» (زهره وند ومسعودی، ١٣٩٢ش: ١٤١) ولكن بعد ذلک الحين أصبح الكون مظلماً وعمّ الظلام فی كل مكان: «بذرة داكنة تحترق الآن فی العطش.» (م.ن: ١٤٦)

والشاعر،كإنسان، يصرخ مرة أخری بحثاً عن النور:

يا إله سهل اللوتس!/ أين هو المفتاح الفضی لأبواب الصحوة؟ (م.ن: ١٤٧)

وتنتهی القصيدة أخيرا بمفارقة جميلة:

تنمو سيقان النور فی بركة الظلام/ اللون يفقد الليل السحری/ المرآة مفقودة فی دخان النسيان. (م.ن: ١٥٠)

إن التوظيف الرمزی للفظة "المرآة" له تاريخ عريق فی قصة الخلق من حيث الرؤية العرفانية. يعتقد العرفاء الذين يعتبرون الكون تجلياً للإله أن: «تلک المرآة الوحيدة التی كانت موجودة فی التعين الأول وانعكس فيها الكمال الإلهی فی لحظة واحدة، تحطّمت بمجرد خلق الكون وتمزقت إلى قطع وتناثرت فی جميع أنحاء العالم. لذلک، إذا نظرت فی كل جزء من العالم، وأخذت كل قطعة من هذه المرآة المكسورة ونظرت إليها سترى الله لا محالة.» (حكمت، ١٣٨٤ش: ٨٤)

بشكل عام فی هذه المجموعة، يعتبر سهراب المتأثر بالتعاليم العرفانية للشرق الأقصی والتصوف بصورة عامة، أن العالم مستنير ولكنه قذر وملوّث:

الضوء تلوّث. الترنح تلوّث. والذهاب تلوّث (حطام الشمس/أعلى من التحليق: ١٩١)

فـي القصيدة القصيرة "إنه الأمثل"، تُـرى بوضوح فتراتُ الكونية والأصل (الرحلة مـن الظـلام إلى النور ومن النور إلى الظلام). القصة هى قصة الخلق البشـرى وعلاقة الإنسان بالله:

وصل إلى تلة الليل/ بضوء مدوى كسرت قدمه مرآة الفضاء/ رفعت يدى فى ظلام الحزن/ وأشـرت إلى مجرة الوحشـة الفارغة/ والنيزک نظرته ميتة ... / وكان جسـده سـكون وظلام. ../ وفجأة/ قفزت من نار شـفتيه شـرارةُ ابتسـامة / وانهار فى أسفل عينيه تل من الليل. (حطام الشمس/ إنه الأمثل: ١٥٤ و ١٥٥) فى هذه القصيدة، ترتبط أسـطورة "مهرزاد" بنظرية "التجلى" العرفانية. وفى أسـطورة "مهـرزاد"، وهى إحدى الأسـاطير الأساسية فى الميثراسـية[1]، «الصخرة الخصبة تنثر الرماد والشظايا النارية أثناء ولادة الميثرا. الميثرا هى إله النور ومن الطبيعى أن تولد هكذا. ... والكهف (المعبد) مثـل الكون، كله ظـلام، يجد النور والضوء مع ولادة الميثرا (مهر). وسـقف معبد مهرى هو رمز للسـماء.» (شاهسنى، ١٣٨٨ش: ١٠٤) (مقتبس من ورمازرن، ش١٣٧٢: ٩٤ ؛ رضى، ١٣٧١ش: ٢٠٠)

وفـى المقطوعـات التالية من مجموعة "حطام الشـمس"، يمكن دراسـة خلق النور والظلمـات أيضاً: حلم فى الضوضاء/٢٠٣- زهرة المرايا /١٤٥- أيها القريب/١٥٨- فوهة ملوّنة/١٥٦- فاكهة داكنة/١٨٠- الرفيق/ ١٥١- شاسوسا/١٣٨- الرنين/١٣٥- فى رحلة إلى تلک الجهة /٢٠٧- تقرّب إلينا /١٩٤- أصوات النبات/١٧٨.

- خلق النور والظلام فى "شرق الحزن"

بعد "حطام الشـمس"، نأتى إلى المجموعة المشـرقة والمعقّدة "شرق الحزن". صوت سـهراب فى هذه المجموعة هو صوت عارف بلغ مرتبة الفناء وشـرب من نبيذ الحب. والآن يشارک الجمهور تجربته حول هذا السكر معبّراً عنها بأقوال مفعمة بشطحات.

فى هذه المجموعة، يمكنک بسـهولة ملاحظة رفقة النور والظلام معاً ومفارقة الكون

1. Mithraism

بوضوح:

... فـی أعماق الظـلام، رأيت قطعة من الشـمس وأكلتها ثم سـكرت وتم إطلاق سراحی و... (شرق الحزن/ وكسرت ورجريت وسقطت: ٢٥٧)

... صمت وتعتيم، وواحد صانع الهمس.

جذع داكن، الفأس الفضی للنور. (شرق الحزن/ إلى الأرض: ٢٦١ و٢٦٢)

ونرى مرافقة مظاهر الوجود المتناقضة فی أساطير معظم القبائل القديمة. «إن التباين بين مايا وأتمان فی الديانات الهندية، والين مع اليانغ فی الديانات الصينية، وأهورامازدا مع أهريمان الشـيطان فـی الديانات الإيرانية أمثلة بارزة لتلـك المظاهر.» (معموری، ١٣٨٣ش: ٤ و٣)

أشـار الباحث الإيرانی محمد معين إلى التفكير المزدوج للآريائيين: «كان لكل من الخير والشـر مصـدرٌ وهما فی حالة صراعٍ مسـتمرة مع بعضهمـا. وكانت قوى الخير سبب السعادة وقوى الشـر سبب البؤس والتعاسة. ومن مظاهر الخير، النهار والمواسم المعتدلة والوفرة والصحة والجمال والحقيقة. ومن مظاهر الشـر، الليل والشتاء والجفاف والمجاعة والمرض والقبح والأكاذيب وما شابه ذلک.» (معين، ١٣٢٦ش: ٤٢)

تعدّ مجموعة "شرق الحزن" تجسيداً لتعاليم تصوف الشرق الأقصى فی شعر سهراب. فی هذا التصوف العرفانی، يعبّر الشـاعر عن مسايرة الأضداد بـ"قانون ثنائی القطب". وبعبارة أخرى، لا توجد تناقضات فی الحكمة الصينية وديانة ذن، لكن مكونات الكون تُكمل بعضها بعضاً. إنهم يشـيرون إلى هذا المفهـوم برمز الين واليانغ. فی جميع عناصر الكـون مـن أصغره إلى الكون كله، يجـب أن يكون الين واليانغ فيها متسـاويين، وإلا سـينهار الكون. وهذه الازدواجية موجودة فی كل شـیء مـن الإلكترون والبروتون، الخالق والمسـتقبِل، الليل والنهار، الرطب واليابس، النور والظلام وحتى الوعی الذاتی واللاوعی من النفس البشرية.

فی العرفان الإسـلامی الإيرانی أيضاً، «كلّ شیء وكلّ شخص فی هذا العالم يبحث خارج نفسـه عن الزوج غير الكفء له ومـن نوع آخر، وفی داخله يهرب من أحدهما ويميل إلى الآخر... لا يمكن للسالک الباحث عن أسرار الحقيقة أن يسلک طريق الإله

ويستكمله إلا إذا هذّب نفسه بطريقة ممزوجة لاختبار غير متكافئ ونقيض الآخر ويستكشف القدرات والدوافع الكامنة الخامدة فى أعماق نفسه ويفعّلها وينمّيها، متناغماً مع المراتب التى يسلكها فى الطريق والاحتياجات التى تتطلّبها تلك المراتب. عندما يخترق الكون أخيراً، وهو عالم التناقض والأضداد، ويصل إلى الفردوس، فسيحقق البقاء والتحيز.» (كزازى، ١٣٩٣ش: ٥٣)

فى شرق الحزن، يحاول سبهرى الذى اختبر تصوف الشرق الأقصى، أحياناً اختبار التصوف الإيرانى الإسلامى أيضاً. فى معظم قصائد هذه المجموعة، على عكس المجموعات السابقة، يشكّل النور بداية العالم ونهايته والعالم ظلام فى قلب النور. تفسير لعالم الكثرة مقابل عالم الوحدة (وحدة الوجود):

... أنا وفخار الظلام واختراق السر الأبدى (شرق الحزن/ وكم هو وحيد: ٢٦٢)

فى الأسفل، طريق عديم اللون/ فى الأعلى شمس ملتئمة (شرق الحزن/ "ويد" (القليل): ٢٥٥)

ماذا تشاهد وحدك؟ / فى الأعلى، زهرة النور عمرها يوم واحد/ فى الأسفل، ظلام الريح (شرق الحزن/ هلا (ألا): ٢١٧ و٢١٨)

فى هذه المقطوعة، يبدو أن الشاعر هو وارث علم الوجود فى ديانة المازدا. «إن رؤية الديانة المازدية تقسم عالم الفكر كله إلى قسمين. أحدهما هو "الرقى" النور اللامتناهى الذى استقر فيه أهورامزاد (ما يسمى فى الأفستا أهورامازدا)، و"إله الحكمة" منذ يوم الألست، والآخر هو حفرة من الظلام تغرق فيها "الخصم"، "المناهض للقوة" والنفى والإنكار، الانهيار، الانحلال وموت الشيطان (فى الأفستا كل شقى خبيث). لا توجد أرضية مشتركة بين قوة الضوء وعكس ها أى الظلام: لا توجد مصالحة للتعايش، ولكنّ هناك حرباً لا هوادة فيها.» (كربن، ١٣٨٧ش: ٥١)

فى "شرق الحزن"، تمتزج أحياناً أساطير الأمم المختلفة فى لاوعى الشاعر لخلق قصة جديدة:

أتت الريح، افتح أيها الباب، قد أتت بحزن الإله .../ تدفقت المياه، تدفقت المياه، ومن سهول الآلهة أحضرت زهوراً سوداء/ أتت ونحن نائمون، أحضرت ضحكة الإبليس

ورسمتْها على شفاهنا .../ طل الصباح فی الأرض، أحضر التفاحة الذهبية من الحديقة الذهبية.» (شرق الحزن/ "نا" (ليس): ٢٣١ و٢٣٢)

جاء فی الأساطير المصرية: أن فی بداية الكون، غطت المياه السوداء كل مكان حتى قرر الله خلق الأرض والسماء من هذه المياه. (ويو، ١٣٨٢ش: ٢٨)

ولكن من ناحية أخرى، ترتبط "التفاحة الذهبية" و"الحديقة الذهبية" أيضاً بأسطورة الخلق الفارسية.

فـی مجال أصل الخلق ونوره وظلامه، لا توجد رؤية مشـتركة فـی هذه المجموعة الشعرية. فيشير الشاعر أحياناً إلى "الليلة الأزلية" فيقول:

الليلـة الماضية، كان الشـيطان يهمس/ كان ليلاً وكان هنـاك مصباح صغير/ كان الشيطان وحيداً بمفرده ... (شرق الحزن/ شاطئ المياه: ٢٤٣ و٢٤٤)

وأحياناً يصوّر الخالق الأزلی على أنه نور:

مدّ يداً، حتى تقطر من أصابعک مائة قطرة/ كل قطرة تصبح شمساً/ لتخلع ليلتنا بمائة إبرة من الضوء/ منفذ منفذ.../ تجلّی بسحابة، تنزلها حتى تمطر برداً علينا/ حتى نكسر القيود بحماس، لكی نفخر ونتباهی ونلتحق بشمسک. (شرق الحزن/ دعاء وصلاة: ٢٥٨ و٢٥٩)

فی "شرق الحزن"، لا يذكّرنا النور بالعالم المضیء فحسب، بل يعكس أيضاً الحالات الروحية. ولكن فی سـياق دراسـة – خلق النور والظلام – يمكن دراسـة المقطوعات التاليـة: گزار(الفاعـل)/ ٢٤١ – لا للحجر/ ٢٢٧ – و/ ٢٢٩ – شـجرة بودهی/ ٢٣٩ التسـرب / ٢٥٢– لا/ ٢٣١ – وكسـرت وجريت وسقطت/ ٢٥٦ – كن وحيداً / ٢٥٠ – پادمـه (اللوتس البری)/ ٢١٩ – الدعـاء/ ٢٥٨ – كم/ ٢٢١ – إلى/ ٢٤٧ – على الأرض/ ٢٦١ – شـكپوی (وقع القدم)/ ٢٢٥ – إلى زهرة لا شـیء/ ٢٦٥– الشيطان أيضاً / ٢٣٥.

– خلق النور والظلام فی "صوت خطی الماء"

فی قصيدة "صوت خطی الماء"، يشارک سبهری الذی وصل الآن إلى مبتغاه المنشود بكل هدوء، تجاربه فی هذه الرحلة الروحية مع الجمهور بلغة بسيطة نسبياً ولكنها رمزية.

فی هذه القصيدة يرى العالمَ كما هو مليئاً بالتناقضات:

... رأيت النور والظلام/ ورأيت النبات فی النور والنبات فی الظلام/ رأيت الحيوان فی النور، والحيوان فی الظلام/ ورأيت الإنسان فی النور والإنسان فی الظلام. (صوت خطی الماء/ ٢٨٥)

فهــو يقبل الظلمة، كونه عاد من رحلته الســماوية والنفســية، حتی يصل إلی النور ويقبل العالم ليتّحد مع الله. وفی الأســاطير الزرادشــتية الإيرانيــة أيضاً هناک «معتقد أساســی بأن تاريخ العالم هو تاريخ الصراع بين الخير والشــر. وفی هذه المعركة، يكون الإنســان بطبيعته مناصراً للإله. لم يخلق عبثاً، كما هــو الحال فی بعض التقاليد الهندية، ولا هو مظهر من مظاهر عظمة الإلهه. فالله بحاجة إلی الإنســان كما أن الإنسان بحاجة إليه. إن العالم الذی يعيش فيه الإنســان، علی الرغم من تلوثه بهاجمة الشر، إلا أنه فی الأســاس مكان صالح، ذلک لأن الإله هو والده. وإنكار هذا المعتقد، يعدّ أحد الخطايا الأساسية للزرادشــتية. وعلی عكس الديانات الهيلينية، لم يقارن الزرادشتيون بوقاحةٍ بين المادة والروح. بل كانوا يعتقدون أن تحقيق الكائن المثالی يتطلّب بأن يكون الاثنان فی وئام وتناسق تام مع بعضهما، وهذا هو الكائن الذی يتجه نحوه التاريخ ويتحقق فی نهاية العالم، أو بالأحری خلال "إعادة بناء العالم.» (هنيلز، ١٣٨٨ش: ٩٤)

يری ســهراب فی مدينة مليئة "بالنمو الهندســی للأسمنت والحديد والحجر" و"سقف مئات الحافلات التی تخلو من الحمام"، سلالمَ تؤدی إلی "سرداب الكحول" وتسير إلی "قانون فساد الوردة الحمراء" وسلالم أخری تصل حتی "سطح الإشراق" وتقود الإنسان إلی "منصة التجلّی". فی سطور هذه القصيدة، تتدفق روح الحياة برسمها اللطيف.

علی الرغم من أن النور هو رمز للروحانية ويستحق العبادة:

إنی مسلم / قبلتی زهرة حمراء/ سجّادتی نبعٌ، تربتی من النور/ السهل هو سجادتی/ أنــا أتوضأ بنبض النوافذ/ فــی صلاتی يتدفّق القمرُ، يســری الطيفُ/ الحجر يظهر من خلف صلاتی/ تبلورتْ جميع جزيئات صلاتی.../... حجری الأســود هو ضياء الحديقة. (صوت خطی الماء: ٢٧٢)

لكن الظلام لا بأس به أيضاً:

لنتــذوّق النور/ فلنقوّم ليلَ قرية، حلمَ غــزال ... / ... ونفتح أفواهنا إذا طلّ القمر/ ولا نقول إن الليل ردىء/ ولا نقول إن الليل لا علم له بإدراك الحديقة. (م.ن: ٢٩٣)

يذكّرنا شــعور سهراب فى هذه الســطور بتفكير يونغ: «لا ينبغى اعتبار الشر عدواً متطفلاً أو منتصراً. إن الشر قوة تشارک فى بناء أى شىء.» (يونگ، ١٣٨٩ش: ٤١٧)

فى هذه القصيدة، على عكس المجموعات الأولى، قول صريح بأن بداية العالم ونهايته نور، وهذه الدنيا عبارة عن مكان مظلم قد تضيئه أحياناً أشــعة من النور البدائى. ليس من دون سبب أن يلجأ الشاعر إلى الطفولة وفترة ما قبل التاريخ ويعتبر السعادة بدائية: لنزيل الحجاب:

لندع الهواء يلامس الإحساس/ لندع المراهقة، تبيت تحت أى عشبة تختارها/ لندع الغريزة تتبع اللعب .../ ... فى الصباح، عندما تشرق الشمس، دعونا نولَد ... / .. دعونا نرتقــى ذروة المحبة على قدم الأمطار الرطبة/ نفتح الباب بوجه البشــر والنور والنبات والحشرات. (صوت خطى الماء: ٢٩٧ و٢٩٨)

يبــدو أن الفئة التى تعتبر ســهراب من أتباع الصوفية الإيرانية وتصوفه اســتمراراً لتصوف المدرسة الإيرانية الأصلية، أى مدرسة شيوخ خراسان (شميسا، ١٣٨٢ش: ٢٨) قد اهتمت بهذه القصيدة.

- خلق النور والظلام فى قصيدة "المسافر"

يجتاز "المسافر" فى هذ القصيدة رحلتين بالتوازى: رحلة تاريخية ورحلة أسطورية.٢ «هذه الرحلات، بالإضافة إلى الأماكن العادية والخاصة (جاجرود، وما إلى ذلک) تشمل منطقتين من مهد الحضارة البشرية، وهما بلاد ما بين النهرين وبابل والقدس من ناحية، والهند والتبت وجبال الهيمالايا من ناحية أخرى. "إلى مزرعة طفولتى اقتادنى الســفر" أى أقتادتنى إلى الســنوات الأولى من الحضارة الإنســانية. (شميسا، ١٣٧٤ش: ١٣٢)

فــى هذه القصيــدة، يمكن رؤية الأســاطير البابلية والمصريــة واليونانية والإيرانية والبوذية وما إلى ذلک معاً، فتغلب عليها الطابع الإيرانى الإســلامى فى موضوع نشأة الخلق:

وقعت نظرة المسافر على الطاولة:

«يـا له من تفاح جميل !/ الحياة منتشـية بالعزلة/ وسـأل المضيـف:/ ـ ما تقصد بـ جميـل؟/ ـ أقصد إفصاح الأشـياء عن حبها/ والحب وحده الحب/ يؤنسـك بدفء تفاحة/ وحده الحب/ اقتادنى إلى رحاب أشجان الحياة/ إلى مقام صيرورة الطير ...» (المسافر: ٣٠٦)

... ويجلس زرزور على غصن شـجرة/ تورق كتاب الموسـم/ وكان السطر الأول: / الحياة هى الإهمال الملون لإحدى دقائق حواء. (م.ن: ٣١٢ و٣١٣)

فى هذه القصيدة، إن الصلة بين "النور" و"الظلام" تشـبه "صوت خطى الماء" ويقول سهراب بصراحة:

قادم أنا من صحبة الشمس/ أين هو الظل؟ (م.ن: ٣١٩)

وهو كشـاعر عارف صوفى، يريد أن يسـتنير قلبه بالنور الإلهى مرة أخرى؛ ولكن نظراً لتأثره بالتصوف البوذى والهندى، فإن الوصل يستحيل:

طوبى للنباتات التى تحبّ النور/ ويد الضوء الممدودة على أكتافها/ – لا، إن الوصل ليس ممكناً / هناك دائماً مسافةٌ. (م.ن: ٣٠٨)

– خلق النور والظلام فى "الحجم الأخضر"

يتحوّل تحسّـر المسـافر إلى شـغف فى هذه المجموعة من الحجم الأخضر. فى هذه المقطوعة، يجتاز الشاعر مسافات ويصل إلى المدينة الفاضلة (فى العقل وفى عالم الخيال الشعرى) ويحاول تحفيز الآخرين من خلال وصف هذا العالم الخيالى:

أصعد إلـى الذروة، أنا ملء بالأجنحة والريـش/ أرى الطريق فى الظلام، أنا ملء بالفوانيـس/ أنا ملء بالنور والرمل/ وملء بالأشـناق والأشـجار/ أنا ملء بالطريق، بالجسـر، بالنهر، بالأمواج/ ريشـتى من ظـل ورقة فى الماء: /كم هـو وحيد داخلى. (الحجم الأخضر/ الضوء، أنا، الزهرة، الماء: ٣٣٦ و٣٣٧)

أو:

هناك شـىء فى قلبى، مثل غابة من الضوء، مثـل قيلولة فى الصباح / وأنا جزوع

إلى حد أننى أريد/ أركض إلى أقصى السهل، أرتقى إلى قمة الجبل. (الحجم الأخضر/ فى كلستانه: ٣٥٠ و٣٥١)

«الصيرورة٣، بعد أن امتلأ قلبه بالنور أو شيء من هذا القبيل، تُصاب نفسه بالتمزّق نوعاً ما؛ أى أن "الأنا" المتحوّلة من القلب تنفصل عن "نفسه". "الأنا" ، التى هى الوجود المـادى تبقى فى مكانها، و"الذات" التى هى حضور مجـرّد، تهرب من ذلک المكان ... وهنا يتحوّل المكان إلى فضاء يتحقق فيه العلوّ والرقى.» (كنعانى، ١٣٩٧ش: ١٩)

إن الحماس والشـغف فى قصائد هذه المجموعة تذكّرنا بـ "السـير إلى الله" (السير من الخلق إلى الحق) حيث يقوم الصوفى بالبحث عن الله ثم يمكث حتى يتحقق الوصل.

«فـى هذا التحوّل، يكون الصوفى فى حالة سُـكر؛ فهو فى الحقيقة مع الله. فى هذا التحوّل والصيرورة، ليس الصوفى إلا سـالكاً؛ الـذات هى الطريق وما يؤدى إليه. فى هذا التحوّل، يختفى الثالوث المحطّم والمقسّـم والمصعّب فى المعرفة والتعريف والمعروف حتـى تظهر الوحدة. فى هذا التحـوّل والانتقال ينتهى الفراق ويبـدأ الوصل؛ ويختفى الظـل فى الضوء. وتتصـل الروح بالمحبوب وتتحد الأنا أو الـذات بالآخر.» (كزازى، ١٣٩٣ش: ١٤٠و١٣٩)

فى قصيدة "وراء البحار"، يبنى الشاعر زورقاً ليفتح نافذة من هذا العالم المظلم تطل على النور:

... يجـب أن نبتعد/ غنى أغنيته فـى الليل/ إنه دور النوافذ. (الحجم الأخضر/ وراء البحار: ٣٦٤)

ثم من خلال "رسالة فى الطريق" يحاول تقديم تحف من النور للآخرين:

« سـوف آتى ذات يوم / وسـأحضر رسالة/ سـأصب الضوء فى العروق/ وسوف أصـرخ: يا من سـلاله غارقة فى النوم! أحضرت تفاحة، تفاحة الشـمس الحمراء/ ... سوف ألتهم النور/ سأحبّه.» (الحجم الأخضر/ ورسالة فى الطريق: ٣٣٨-٣٤٠)

فى الأساطير، «تمثل الشمس الضمير الواعى والتنوير والحكمة.» (گرين وآخرون، ١٣٨٣ش: ١٦٢) و"التهام النور" هو استعارة لفهم التعاليم المقدسة.

علـى الرغـم من أن هذا العالم مظلم، ولكن هذا الظلام ليـس بعيداً عن النور. وهو

الذى أصبح الآن يميل إلى التصوف الإسلامى، ولا يعتبر الوصل أمراً مستحيلاً:

... قلت لهم:/ الشمس مطلة على عتبات أبوابكم/ إذا فتحتم الباب، فسوف تلمع فى سلوككم. (الحجم الأخضر/ سورة التفرج: ٣٧٤)

بما أنه قد غسل نظرته فى "صوت خطى الماء" فلا يجد الليل والظلام مرهقاً؛ الليل عنده "ليلة الوحدة اللطيفة":

اسمع، فإن أبعد الطير فى العالم يغنّى/ الليل ناعم وخالص ومفتوح/ الغرنوقيات/ والفرع الأعلى صوتاً من الموسم يسمع القمر. (الحجم الأخضر/ليلة الوحدة اللطيفة: ٣٧١)

وكما يقول ويليام بليک : «عندما تغسل أبواب البصيرة بسبب التغييرات الأساسية وتُطهّر، ستظهر الأضداد بأشكال جديدة غير متعارضة.»

عند هذه النقطة ينشد الشاعر مثل النبى:

رأوا رسولاً على كل جبل/ حملوا سحابة إنكار/ أنزلنا الرياح/ لإزالة القبعة من رؤوسهم/ بيوتهم كانت مليئة بالأقحوان/ أغلقنا أعينهم/ لم نوصل أيديهم إلى رئيس فرع الذكاء/ ملأنا جيوبهم بالتعوّد/ لقد شوّشنا نومهم بصوت رحلة المرايا. (الحجم الأخضر/ سورة التفرج: ٣٧٥ و٣٧٦)

«هذه القصيدة هى قصة الهجرة البشرية من أرض الطبيعة الخضراء المنعشة. وتلوّث الإنسان بجراثيم التعوّد، خسارته لذاته بالتقاليد. استجابة الإنسان لآلاف الأديان والأيديولوجيات. ابتعاد الإنسان عن طبيعته النقية والشفافة. خروجه من عالم الحب الرطب.» (آزاد، ١٣٧٤ش: ٣٠٢)

- خلق النور والظلام فى "نحن لا شىء،.. نحن نظرة"

فى "نحن لا شىء، نحن نظرة"، بعد فترة من الهدوء الذى تجلّى فى مؤلفاته، يتعامل الشاعر مرة أخرى مع سر الخلق بمظهر أسطورى، بحيث يكون الموضوع المهيمن فى قصائد هذه المجموعة هو قصة الخلق، هبوط الإنسان وحنينه وضياعه فى هذا العالم الأرضى.

"من المياه فصاعدا" قصة حياة الإنسان. تبدأ القصة من اليوم الذى "كانت فيه

المعرفة تعيش على حافة الماء" وكان الإنسان "سعيداً بالفلسفات اللازوردية فی کسل المراعی اللطيف"، ثم تشير إلى دخول الإنسان إلى هذا العالم:

حينها/ كان إصبع التطور/ فی هندسة الحزن الدقيقة يبقی وحيداً. (نحن لا شیء، نحن نظرة/ من المياه فصاعداً: ٤٢٥)

فی مجموعة "كان طائر هنا"، يتعامل الشاعر مع خلق الإنسان بتعبير رمزی، استعاری وأسطوری (نظرية الأصل):

... يا حياة مكثفة!/ جذورک تشرب الماء من مهلة النور/ االبشر- هذا الحجم المحزن- / ينام على جدار المسبح/ يری يوم المسبح الممتلئ ... / ...أنا / وريث دور بساط الأرض/ وجميع منحنيات هذا المسبح/ شكله وعاء نحاسی/ سافر معی/ من الأرض الغريزية الوعرة/ إلى إزالات ضمير اليوم ... (نحن لا شیء، نحن نظرة/ كان طائر هنا: ٤٣٠ و٤٣١)

فی "نص الليل القديم"، عبارات "الأحاديث الخضراء الفلكية"، "أوراق التين الداكنة"، "الحجر"، "صدر الماء"، "التفاحة اليومية"، "الفروع الأسطورية"، "موسيقی النجوم" و.. يتذكّر بداية الخلق على أساس الأساطير الإيرانية الإسلامية.

يا من بين أحاديث الفلک الخضراء! / أوراق تين الظلام/ تجلب عفة الحجر/ صدر الماء يتلهّف إلى صورة حديقة/ يحترق / تفاحة يومية/ طعمها مثل الوهم فی فمی ... / هذه الليلة / يدی لا نهاية لها:/ هذه الليلة من الغصون الأسطورية/ يقطفون الثمار. (نحن لا شیء../نص الليل القديم: ٤٣٣ و٤٣٤)

فی هذه القصيدة، يری الشاعر "مواهب الليل المجهولة" فی المنام. وفی هذا المنام يمزج سبهری أساطير الخلق المختلفة مع بعضها. وكسائر قصائد هذه المجموعة، يشير الشاعر إلى أسطورة الأصل والخلق من الظلام. «فی هذه القصيدة يبادر الشاعر بقراءة أقدم نسخة للعالم وهی أعرق نسخة بالفعل. وعصر الخلق والفترة التی لم يكن فيه الإنسان قادراً على الكلام ويصف فترة الحياة البشرية فی عصر الحجر ثم يشرح كيف أن الإنسان بدأ يتكلّم، لكن هذه القصيدة ليست مجرد تاريخ لحياة البشر، فهی تتحدّث أيضاً عن نفسها وإلهام الشعر. وبالتالی، إن الغاية من النص القديم، الروايات القديمة

والغرض من الليل، الفترة البدائية وظلام عصر الخلق.» (شميسا، ١٣٨٢ش: ٢٧٥)

فى شهوده الشعرى لهذه المجموعة، ينشد سبهرى تعاليم من التصوف فى الشرق الأقصى والتصوف الإسلامى، بالإضافة إلى أساطير من دول مختلفة. وفى هذه المجموعة، وأكثر ما يرمى إليه الشاعر، هو الإشارة إلى نظرية الأصل والخلق من الظلام، ما جعل هذه المجموعة تتسم بالغموض.

فى آخر قصيدة لـ "ثمانية كتب" وهى قصيدة "الحضور حتى النهاية"، شهد الشاعر بداية الليل البدائية:

الليلة/ فى حلم غريب / نحو الكلمات/ ستفتح/ ستقول الريح شيئاً / ستسقط التفاحة/ ستتدحرج على أوصاف الأرض/ ستواصل حتى حضور الوطن الغائب ليلا ... (نحن لا شيء، نحن نظرة/ الحضور حتى النهاية: ٢٥٥ و٢٥٦)

انفتاح الباب للكلام (بداية التكلّم) وتساقط التفاح (إغراء الوصول إلى المعرفة) يشير إلى حنين الفردوس وهبوط الإنسان حسب الأساطير الإيرانية الإسلامية. فى هذه الأساطير، «يرافق تعليم الأسرار لآدم، تعليم الأسماء وتناول الفاكهة المحرّمة. الفاكهة المحرّمة هى ثمرة معرفة وبصيرة.» (حسينى وبهمنى، ١٣٩٣ش: ١٢)

فى المقطوعات التالية، يشير سبهرى أيضاً إلى قصة الخلق وهبوط الإنسان: من المياه فصاعداً/ ٤٢٣ – كان طائر هنا/ ٤٢٩ – نص الليل القديم/ ٤٣٣ – عيون الاجتياز/ ٤٤٢ – زمن الرمل اللطيف/ ٤١٧.

النتيجة

إن الإشارات الوفيرة إلى مفاهيم مثل الوحدة، والطبيعية، ووحدة الوجود، والماضوية، وما إلى ذلك، إنما تعبّر عن النظرة العرفانية الصوفية لهذا الشاعر. فهو إلى جانب المتصوفين الآخرين، يشتاق للعودة إلى الأيام الخوالى. من ناحية أخرى، يتسم تصوف سبهرى وأسلوبه العرفانى، بالتفكير والتأمل. الشاعر يغور فى تأمله العرفانى الذى يفكّر فى بداية الخلق ولماذا وكيف بدأ؟ هذا الشغف والتفكير يأخذه إلى زمن الأساطير، حيث يتحد فيه الأزل والأبد وكل الأحداث قابلة للتكرار. وبهذا يتشابك

التصوف العرفانی والأسطورة فی شعر سبهری ویعبّر عنها بلغة رمزية. من بين الأساطير المختلفة، يركّز على أسطورة الخلق (أكثر من عشرين مرة). إن خوض سبهری لأساطير الأمم وكذلک تعلّقه بعالم التصوف، جعل رؤيته تمتاز برؤية عالمية.

فی مجموعة "موت اللون"، الالتفات إلى الحقائق المريرة والمؤلمة للمجتمع يمنع سبهری من معالجة المفاهيم المجردة مثل قضية الخلق.

فی "حيـاة الأحلام" وما بعدها، تدخل "الذات" الشـعرية لسـهراب، مرحلة زمن الأساطير لاكتشاف سر الوجود فی ذلک الزمان والمكان. وفی مجموعتی "حياة الأحلام" و"حطام الشـمس" إن عقل سهراب وروحه متجه نحو تصوف الشرق الأقصى، ويتطرق إلى مرحلتی "الكونية" و"الأصل" حيث للعالم الغريب مكانة خاصة فيهما ويتجلى ذلک بوضوح وبشـكل منفصل. فی هذه الفترة، يبدأ الخلق من قلب الظلام ويصل إلى النور. فی هاتين المجموعتين، يعتبر سـهراب، متأثراً بتعاليم تصوف الشرق الأقصى والتصوف بشكل عام، أن العالم مستنير ولكنه قذر وملوّث فی نفس الوقت.

فی "شـرق الحزن"، يحاول سـبهری الذی اختبر عالم تصوف الشـرق الأقصى، أن يخـوض أحيانـاً تجربة التصوف الإيرانی الإسـلامی أيضاً. فی هـذه المجموعة، هناک تأرجح بين خلق الظلام وخلق النور، مما يدل على شک الشاعر وريبه. فی معظم قصائد هذه المجموعة، على عكس المجموعات السابقة، يشكّل النور بداية العالم ونهايته. وعالم الظلام فی قلب النور يدلّ على عالم الكثرة مقابل عالم الوحدة.

فی قصيدتی "صوت خطی الماء" و"المسـافر"، يميل سـبهری الذی وصل إلى هدوء نسـبی إلى التفكير بحاضر الكون أكثر من بدايته. فی هاتين القصيدتين، إن بداية العالم ونهايتـه من النور وفقاً للتصوف الإسـلامی، وهذا العالم ظلام تضيئه أحياناً أشـعة من النور البدائی. وهذا هو السـبب فی انتقال الشـاعر إلى أيـام الطفولة وعصور ما قبل التاريخ، وجعله يعتبر السعادة بدائية فی الأساس.

وتظهـر هذه الرؤية فـی "الحجم الأخضر"، مع الفرق فی أنـه فی مجموعتی "صوت خطی الماء" و"المسـافر"، يعتبر سـهراب الذی كان متأثراً بتصوف الشرق الأقصى، أن الوصل العرفانـی، أی الوصول إلى النور والإفاضة، أمرٌ مسـتحيل، ولكن فی "الحجم

الأخضر" بحسب التصوف الإسلامی، لا یری مسافة کبیرة بین عالم النور والظلام.

فی "نحن لا شـیء، نحن نظرة" یتجه سـبهری بعد فترة من الهدوء التی انعکست فی بعض مجموعاته، نحو سـر الخلق بنظرة أسـطوریة مرة أخری. فی سـیاق مظهر الشهود فی قصائد هذه المجموعة، ینشـد الشـاعر تعالیم من تصوف الشرق الأقصی والتصوف الإسـلامی، بالإضافة إلی أساطیر مختلف الشعوب معاً. فی هذه المجموعة، تفوق نظریة الأصل والخلق من الظلام، وهو أحد الأسباب الذی جعل هذا الکتاب یتسم بشیء من الإبهام والغموض.

المصادر والمراجع

القرآن الکریم

الکتاب المقدس

ابن عربی، محمدبن علی. (١٣٨٧ش). التدبیرات الإلهیة فی إصلاح المملکة الانسـانیة (جهان انسـان شد و انسان جهانی). ترجمة قاسم انصاری. طهران: دار علم للنشر.

ابن عربی، محمد بن علی. (١٣٨٨ش). الفتوحات المکیة. ترجمة محمد خواجوی. طهران: نشر مولی.

احمـدی، جعفـر. (١٣٩٠ش). «آیین هندو؛ گوناگونی طرح‌ها در فرآینـد آفرینش و انحلال جهان». معرفت ادیان. السنة الثالثة. العدد الأول. صص٩٤-١١

اوحدی مراغه‌ای، رکن‌الدین. (١٣٩١ش). مجموعة أشعار. المراجعة: حمید سمنانی وسعید نفیسی. ط١. طهران: سنایی للنشر.

آزاد، پیمان. (١٣٧٤ش). در حسرت پرواز. ط١. طهران: هیرمند.

بـوکای، موریس. (١٣٦٤ش). مقایسـه‌ای میان تـورات، انجیل، قرآن و علم. ترجمـة ذبیح‌اله دبیر. طهران: مکتب النشر الثقافی الإسلامی.

جلالی نائینی، محمدرضا. (١٣٨٤ش). ثنویان در عهد باستان. طهران: طهوری.

حسـینی، مریم و کبری بهمنی. (١٣٩٣ش). «تکرار های اساطیری در کشف الاسرار روزبهان بقلی شیرازی». فصلیة ادبیّات عرفانی و اسطوره شناختی. السنة ١٠. العدد ٣٧ . صص ١٠٩-٦٩

حکمت، نصراله. (١٣٨٤ش). حکمت و هنر در عرفان ابن‌عربی. طهران: فرهنگستان هنر.

رضی، هاشم. (١٣٧١ش). آیین مهر (میترائیسم). طهران: بهجت.

زهره وند، سـعید و مسـعودی، مرضیه. (١٣٩٢ش). «نشـانه های کیهانی در شعر و نقّاشی سهراب سپهری». جستارهای ادبی. السنة ٤٦. العدد١ (التسلسل ١٨٠). صص ١٥٨-١٢٥

سـاندرز. ن. ک. (١٣٧٢ش). بهشت و دوزخ در اسـاطیر بین‌النهرین. ترجمه ابوالقاسم اسماعیل‌پور.

طهران: فكر روز.
سلمانی‌نژاد مهرآبادی، ساغر. (۱۳۹٤ش). «واکاوی و تحلیل گونه‌های مختلف اسطوره در شعر سهراب». ادبیات پارسی معاصر. مرکز أبحاث العلوم الإنسانية والدراسات الثقافية. السنة ٥. العدد الثانی. صص ۱۳۸-۱۱٥
سهروردی، شیخ شهاب‌الدین. (۱۳۷۷ش). آواز پر جبرئیل. باهتمام حسین مفید. ط۲. طهران: مولی.
سیاهپوش، حمید. (۱۳۷٤ش). باغ تنهایی (یادنامه‌ی سهراب سپهری). ط۳. طهران: پرنگار پارس.
سپهری، سهراب. هشت کتاب. (۱۳۷۱ش). ط۱۱. طهران: طهوری.
شاه‌سنی، علی‌محمد. (۱۳۸۸ش). آیین مهر و بازتاب آن در منظومه‌های بزرگ عرفانی. ط۱. سمنان: جامعة سمنان.
شایگان، داریوش. (۱۳۸٦ش). ادیان ومکتب‌های فلسفی هند. ج۱ و ج۲. ط٦. طهران: امیرکبیر.
شعیری، حمیدرضا وغلام حسین زاده، غلام حسین وخراسانی، فهیمه. (۱۳۹٤ش). «بررسی نظام گفتمانی شوشی در داستان سیاوش». فصلية پژوهش های ادبی. السنة ۱۲. العدد٤٨. صص ٥٤-۳٥
شمیسا، سیروس. (۱۳۸۲ش). نگاهی به سپهری. طهران: صدای معاصر.
غزالی، محمدبن محمد. (۱۳۸٦ش). کیمیای سعادت. باهتمام حسین خدیوجم. ج۱. طهران: علمی و فرهنگی.
فرشاد، محسن. (۱۳۸۹ش). اندیشه‌های کوانتومی مولانا. ط٥. طهران: گلرنگ یکتا.
کربن، هانری. (۱۳۸۷ش). انسان نورانی در تصوف ایرانی. ترجمة فرامرز جواهری‌نیا. شیراز: آموزگار خرد.
کزازی، میرجلال‌الدین. (۱۳۹۳ش). دمی بی خویشتن با خویشتن. طهران: معین.
کنعانی، ابراهیم. (۱۳۹۷ش). «معناشناسی نور در شعر سهراب سپهری» مجلة "زبان شناسی وگویش های خراسان"، جامعة فردوسی مشهد. العدد ۱۸. صص ۲۰-۱
کومن، فرانتس. (۱۳۸۳ش). آیین پررمز و راز میترایی. طهران: بهجت.
گذشتی، محمدعلی وبهروز رومیانی. (۱۳۹۲ش). «شهر نور و ظلمت در شعر سپهری». ادبیات پارسی معاصر، السنة الثالثة، العدد الثانی (التسلسل٦). صص ۱۱٤-۸۹
گرین، ویلفرد وآخرون. (۱۳۸۳ش). مبانی نقد ادبی. ترجمة فرزانه طاهری. طهران: نیلوفر.
گودرزی، کوروش وسیدمحسن حسینی موخر ومحمدرضا روزبه. (۱۳۹٥ش). «بررسی وتحلیل تجلّی زمان ومکان مقدّس اساطیری در عرفان». فصلية ادبیات عرفانی واسطوره شناختی. السنة ۱۲. العدد ٤٥. صص ۲٤۸-۲۱۷
گیتون، ژان وگریشکا بوگدانف. (۱۳۸۷ش). خدا وعلم. ترجمة عباس آگاهی. ط٦. طهران: مکتب نشر الثقافة الإسلامية.

لاجوردی، فاطمه. (۱۳۹۵ش). «خلق در ادیان». طهران: مرکز دائرة المعارف الإسلامیة الکبری.
معین، محمد. (۱۳۲٦ش). مزدیسنا وتأثیر آن در ادبیات فارسی. طهران: جامعة طهران.
نزهت، بهمن. (۱۳۸۸ش). «نماد نور در ادبیات صوفیه». مجلة علمیة محکمة للدراسات العرفانیة. العدد ۹. صص۱۸٦-۱۵۷
ورمازرن، مارتن. (۱۳۷۲ش). آیین میترا. ترجمة بزرگ نادرزاد. طهران: چشمه.
ویو، ژ. (۱۳۸۲ش). اساطیر مصر. ترجمة ابوالقاسم اسماعیل‌پور. ط۱. طهران: کاروان.
هالروید، استوارت. (۱۳۸۸ش). ادبیات گنوسی ۱. ترجمة ابوالقاسم اسماعیل‌پور. ط۱. طهران: اسطوره.
هروی، محمدشریف نظام‌الدین. (۱۳٦۳ش). انواریه (ترجمة و شرح حکمة الإشراق للسهروردی). طهران: امیرکبیر.
هینلز، جان. (۱۳۸۸ش). شناخت اساطیر ایران. ترجمة ژاله آموزگار واحمد تفضلی. ط ۱٤. طهران: چشمه.
الیاده، میرچا. (۱۳۹۳ش). اسطوره و واقعیت. ترجمة مانی صالحی. طهران: پارسه.
یونگ، کارل گوستاو. (۱۳۸۹ش). الإنسان ورموزه. ترجمة محمود سلطانیه. ط۲. طهران: جامی.

پژوهشگاه علوم انسانی و مطالعات فرهنگی
پرتال جامع علوم انسانی